التوازن بين ازدحام السكان

ودوائر العمران

﴿ التعاون الحتمي ﴾ — الانسان اجتماعي بمقتضى الحاجة الاقتصادية . فالناس آثروا الاجتماع لما فيه من مزايا التعاون الاقتصادية وتبادل المنفعة والتألب على الطوارئ والتوافق على المصالح . ولما صار الناس اجتماعيين صار مستحيلاً عليهم ان يفككوا اوصال مجتمعهم لان تنوع موارد الارزاق وتعدد الحاجات مع تمادي الزمان قضيا حتماً بتوزع الاعمال على افراد المجموع حسب سنة التعاون

ولما كانت الاعمال مرتبطة بعضها ببعض لم يكن بدٌّ من ارتباط الناس ايضاً بعضهم ببعض . فلو رام فرد ان يعتزل المجموع ويعيش مستقلاً الاستقلال المطلق عن معاملة المجموع لهلك لا محالة لعدم تيسُّر حاجاته المتعددة له ولانهُ بعد ان نشأ في وسط اجتماعي لا يقدر ان يعيش عيشة جدهِ القديم

فالناس في نظامهم مترابطون ترابطاً حتميًّا ومتعاونون بالرغم من اختيارهم اي سواء رضوا اولم يرضوا فهم مضطرون الى التعاون لانهُ ارث الجسم الاجتماعي المتسلسل . والمراد بالتعاون هنا اختصاص كل فرد او جماعة من الجماعات بعمل من الاعمال المتنوعة المشتركة وتبادل الافراد ثمرات الاعمال بطريقة المعاملة التجارية

فاذا تكاثر عدد السكان بحكم سنَّة التناسل الطبيعية القاسرة ازدحموا في دائرة ارزاقهم بحكم سنَّة الترابط المشار اليها آنفاً وان وجدت دوائر للرزق غير دائرتهم اقل ازدحاماً منها

وقبل ان نبين سر هذا الازدحام في دوائر الارزاق انواحدة مع وجود دوائر اخرى غير مزدحمة لا نرى بدًّا من الاسهاب في بيان مرونة الدائرة التي اشرنا اليها في النبذة السالفة

﴿ تعليل مرونة الدائرة ﴾ — لقوة الارض على الانتاج حدٌّ نهائي فمتى بلغ استغلالها هذا الحد فزيادة العاملين فيها لا تزيد غلتها شيئًا وكل عمل يعمل فيها علاوة على ما يكفي لاخراج ذلك القدر يذهب عبثاً . فاذا ازداد العمال على حاجة الارض كان نصيب كل منهم من الغلة اقل . فاذا كان نصيب غيرهم من ثمرة العمل في النسج مثلاً اوفر ترك بعضهم الزراعة وانضم الى الناسجين بحيث تتوازن المكافأة بين هؤلاء واولئك بنسبة الاهلية الشخصية . واذا ازداد الناسجون الى حد ان تزداد منسوجاتهم على حاجة المجتمع وقلَّ نصيبهم من المكافأة عن نصيب الحدادين مثلاً جنح بعضهم الى صناعة الحدادة بحيث تتوازن المكافأة بين

الطائفتين . وهكذا يتوزع العمال على الاعمال اللازمة للجتمع كلما توزعوا بتكافؤ متوازن تقريباً وكلما ازداد افراد المجتمع توزعوا على هذا النحو ايضاً

﴿ مصادر الرزق الطبيعية والصناعية ﴾ — ولا يخفى ان اساس الارزاق مصادرها التي في الطبيعة كزراعة الارض وتربية المواشي واستخراج الفحم الحجري والبترول وسائر المعادن وصيد الاسماك والطيور الخ . واما الاعمال الاخرى كالحدادة والحياكة والتجارة والبناء الى غير ذلك من انواع الاعمال التي لا تحصى فانما هي مصادر للرزق تكميلية يراد بها تسهيل استخراج الارزاق الطبيعية وتهيئتها لحاجات الانسان الضرورية والكمالية . وعليه فالاعمال الصناعية والتجارية ونحوها مترتبة على مصادر الارزاق الطبيعية وموقوفة عليها . فاذا فقد القطن والصوف والكتان لم يبق للناسج ما ينسجهُ وبالتالي لم يبق للتاجر المنسوجات ما يتاجر بهِ وللخياط ما يخيطهُ . واذا استوفى السكان الذين يستهلكون كل ما في دائرة رزقهم من الغذاء والكساء حاجتهم من المنازل والاثاث لم تبق حاجة لبناء البناء ولا لتجارة التجار ولا لصناعة الخزاف الخ

﴿ الحد النهائي لمصادر الارزاق الصناعية ﴾ — فكما ان لمصادر الارزاق الطبيعية حداً نهائياً كذلك للاعمال المتوقفة عليها حدٌّ نهائي ايضاً . فكما ازداد افراد المجتمع وتوزعوا على الاعمال تناقص نصيب كل فرد منهم وكلما اتسعت دائرة الاعمال قلت مرونة دائرة الارزاق واستلزم توسيعها جهاداً اشد . اي ان نسبة الجهاد في تحصيل الرزق الى الحاصل منهُ تزداد بزيادة ازدحام الناس في هذه الدائرة

﴿ مط الدائرة بالاضافة ﴾ — على انهُ قد تنفد مصادر الارزاق الطبيعية او يبلغ استخراجها الحد النهائي في مملكة ما ومع ذلك تبقى دائرة الرزق مرنة تحتمل المط والاتساع بواسطة المعاملات التجارية مع البلاد الاجنبية فيستورد السكان جانباً من حاصلات البلاد الاخرى الطبيعية ويصدرون بدلها مصنوعاتهم كما يفعل الانكليز مثلاً في استيرادهم القطن ونسجهِ واستبدال جانب من مصنوعاتهم ومنسوجاتهم بالحنطة والثمار والحبوب المقتدة . ولو اقتصر الانكليز على الاتكال على مصادر الرزق الطبيعية عندهم لما احتملت بلادهم عددهم الوافر ولا يخفى ان هذا الازدحام الهائل في منطقة يستلزم النقص في السكان في منطقة اخرى . فلو كان قطن مصر ينسج فيها مثلاً لاقتضى ان ينقص سكان انكلترا ويزداد سكان مصر

﴿ نقص الدائرة بغير الازدحام ﴾ — وكما يحتمل ان دائرة الرزق تتسع بعدم جانب من مصادر دائرة اخرى اليها على نحو ما تقدم يحتمل ايضاً ان دائرة رزق اخرى تتوفر من غير

ان تنفد مصادر الرزق الطبيعية فيها اذ تحدث اسباب اجتماعية توقفها قسراً بازغم من عدم استيفائها ما تحتمله من الازدحام . واهم هذه الاسباب فساد الحكومة واستبداد الحكام كما في بعض الممالك الشرقية مثلاً فان كلاً منها تحتمل من السكان ضعفي سكانها بل ازيد لو كان فيها عدل وتدبير لشؤون الاقتصادية . ومن تلك الاسباب الجهل الذي يفضي الى ظلم الحكام ايضاً والى الفوضى في الاحكام ويقف في سبيل تقدم الحالة الاقتصادية واستعمال الطرق الحديثة لاستخراج خيرات الارض كما في بلاد العرب مثلاً

﴿ التخام الدوائر ﴾ — ثم ان دوائر الارزاق المتجاورة جغرافياً والمتقاربة في التمدن والعمران قد تتخم بعضها بعض من بعض الجهات بحيث يتيسّر التدفّق من الدائرة المزدحمة الى الدائرة الاقل ازدحاماً بعض التيسّر . نقول بعض التيسّر لان هناك عقبات اجتماعية واقتصادية كالتغة والتعصب للجنسية ونحوهما تقف سبيل ذلك التدفّق فتقل او يكثر حسب تلك العقبات . وبهذا الاعتبار تعد تلك الدوائر المتلاحمة دائرة كبيرة مركّبة . فقد يعدّ كل من اوربا واميركا الشمالية واسيا وجنوبي افريقيا دائرة كبيرة مركبة واخيراً لك ان تعد الممالك المتمدنة كلها في العالم دائرة مركبة مقابل دائرة الممالك المتمدنة بعض التمدن لان علائق تلك بعضها ببعض اكثر من علائقها مع الممالك الاخرى

﴿ القوتان المتضادتان ﴾ — نرى من كل ما تقدم ان في كل مجتمع من المجتمعات البشرية قوتين متضادتين تفعلان معاً . الاولى قوة الميل الطبيعي الى التناسل المفضي الى ازدحام السكان . والثانية ضغط دائرة الارزاق المتوترة على السكان . وكلما اشتد الزحام من جهة والضغط من جهة اخرى قل عدد السكان او ازدادت تعاستهم

﴿ اسباب القعود عن المهاجرة ﴾ — بقي ان نورد الاسباب التي تحمل افراد المجتمع على تحمل مشقة ذلك الجهاد واحتمال هذه التعاسة وتفضيلها على اختراقهم دائرة رزقهم وخروجهم الى دائرة اخرى ارحب

اولاً ان السبب الاساسي الذي يخرج الفرد الى المهاجرة هو نفسهُ عقبة كؤود في سبيل مهاجرته وتعني به نفسه ذات اليد . فاذا كان الفرد عاجزاً عن تحصيل رزقه فكيف يقدر على تجشم مشاق المهاجرة والقيام بنفقاتها — نفقة السفر ونفقة الاقامة في بدء الامر ونفقة الشروع في عمل جديد . لذلك ترى ان الفقر المدقع يقعد جانباً من المغبوط عليهم عن المهاجرة ولسان حالهم يقول « عصفور في اليد ولا عشرة على الشجرة » واما الموسر او المكتفي فلا يضطر الى المهاجرة

ثانياً ان الفرد مرتبط بوطنه بربطة مختلفة — علاقة الاهل والفة الاصدقاء ومعاشرتهم واحساساتهم نحوه . وهذه الاربطة تقعد كثيرين عن المهاجرة لشعورهم بضعف وهم بعيدون عن الاهل والاصحاب

ثالثاً جهل الفرد لغة البلاد التي يخرج الى المهجرة اليه يفقده جانباً كبيراً من اهليته . ولا ريب ان الفرد في مهجره اضعف منهُ في بلاده الاَّ اذا كان اهل المهجر احط منهُ في اعتبارات كثيرة

رابعاً كثيراً ما تكون المسؤولية نحو العائلة عقبة في سبيل المهاجرة . فرب العائلة العاجز عن العازب عن المهاجرة والعازب اقوى اضطراراً اليها

خامساً اختلاف البيئة يكون احياناً عقبةً فالذي نشأ في منطقة باردة مثلاً يستصعب جداً المعيشة في منطقة حارّة والعكس بالعكس . والذي تعوَّد سكن المدينة يستصعب المعيشة في الريف الخ

﴿ ضعف هذه الاسباب ﴾ — على ان هذه الاسباب ونحوها مما على شاكلتها ليست اسباباً قوية للقعود عن المهاجرة اذا توترت دائرة الرزق وشدَّدت الضغط على المزدحمين فيها . وانها هي كافية لامتساك السكان بوطنيتهم ما دامت دائرة رزقهم تحتمل الغط والاتساع عليهم وان وجدت دائرة اخرى اوسع وارحب لهم . هذا هو سر الازدحام في مناطق من المعمور اكثر منهُ في مناطق اخرى

واما تزاحم الناس في المناطق العامرة مع وجود مناطق اخرى خالية من العمران او قليلة السكان فليس سرّاً خفيّاً عن الاذهان . وغني عن البيان ان استعمار البلاد غير العامرة كجاهل افريقيا يستلزم مشقات لا يستطيعها الافراد ولا يمكن ان يقوم بها الاَّ جماعات مستعمرة متضامنة

﴿ اسباب المهاجرة اقوى ﴾ — وكما انهُ توجد اسباب كافية للقعود عن المهاجرة توجد اسباب اقوى للاقدام عليها وهي

اولاً — توتُّر دائرة الرزق حتى لا تعود تحتمل غطّاً ولا اتساعاً فعند ذلك يفضل المتضايقون من شدة الازدحام اخطار المهاجرة على الهلاك تحت ذلك الضغط لان في المهاجرة املاً وفي البقاء تحت الضغط يأساً

ثانياً — ان البلاد المتجددة في العمران ترحب بالمهاجرين وتسهّل المهاجرة لهم لانها تحتاج الى عمال يعملون فيها كبلاد الاميركية في القرن الماضي

ثالثاً — انهُ متى شرع البعض يهاجرون يهدون السبيل لغيرهم اذ توجد صلة بين الفريقين . والذين هاجروا يؤمنون بقاءهم وعدادتهم وطناً جديداً لاخوانهم وبني جنسهم ويزيلون اكثر العقبات التي مرَّ ذكرها بل كلها . ومهاجرة السوريين الى اميركا وغيرها مثلٌ ظاهرٌ على كل انواع المهاجرة

رابعاً — متى شعرت الامة بمتانة اوحكومتها بشدة الازدحام وتوترت دائرة ارزاقها اهتمت بالاستعمار في خارج بلادها وتسهيل المهاجرة الى المستعمرة الجديدة كما فعلت امم اوربا المستعمرة

خامساً — العلائق التجارية بين الممالك المختلفة تسهل سبيل المهاجرة كما لا يخفى . وهذه العلائق تنبه كثيراً ما تكون سبباً كبيراً لزيادة مرونة دائرة الرزق كما ذكر آنفاً

❖ التوازن بين ضغط الدائرة والازدحام ❖ فاذا كانت دوائر الارزاق من الجهة الواحدة تتوتر اخيراً حتى تضغط على السكان مهما كانت مرنة وقابلة المط والاتساع واذا كانت قوة الميل الطبيعي الى التناسل من الجهة الاخرى تفضي الى ازدحام السكان وتزاحمهم واذا كانت نتيجة الضغط من هذين الجانبين تؤول الى اشقاء السكان بانقاص نصيب الفرد منهم من الرزق — فلا بدَّ من وجود توازن بين ضغط قوة التناسل وضغط الدائرة وشقاء السكان . فاذا كثر التناسل واشتدَّ الزحام وجب على السكان ان يمطُّوا الدائرة ما استطاعوا . فان عجزوا عن مطها عند حد وجب ان يرضوا بالنقص من هنائهم وبالمزيد من شقائهم او ان يرحلوا . فان لم يستطيعوا الرحيل ولا احتمال المزيد من الشقاء اضطروا الى مقاومة قوة الميل الى التناسل . فترى ان كلاً من هذه الحالات الثلاث مرنٌ وقابل للنقص والتمدُّد . والسكان يتموجون تحت هذه القوات الضاغطة حسب تنقُّب الضغط من جهة على الجهتين الاخريين

فامام السكان اذاً ثلاث مهمات : اولاً توسيع دائرة الرزق او الخروج الى دائرة اخرى . وثانياً احتمال المزيد من الشقاء . وثالثاً تقليل النسل . والامم تختلف لقاء هذه المهمات . فالانكليز مثلاً يهتمون بالاكثر في توسيع دائرة ارزقهم . والارلنديون والطليان يرضون بنقص الرزق والشقاء . والافرنسيس يقاومون الميل الى التناسل . ولعلي مخطئ بهذا التمثيل ولكن اختلاف الامم في هذه الاعتبارات امرٌ لا مشاحة فيه . على ان كل امة من الامم المزدحمة في دائرتها لا بد ان تقوم بكل من هذه المهمات الثلاث كثيراً او قليلاً . ولما كانت قوة الميل الى التناسل اشد هذه القوات والسكان يتكاثرون على نسبة هندسية بحيث انهم يتضاعفون اضعافاً لا يحصى عديدها في قرون قليلة فلا ريب من وجود عوامل قوية

مقاومة تكاثر النسل والا لكانت البسيطة امتلأت منذ قرون ولكانت الطبيعة تسمح بذلك فما هي هذه العوامل ؟

﴿ العوامل تضد قوة الميل الى تكثير النسل ﴾ — قسم مالثوس العوامل المقاومة لازدياد السكان الى قسمين : عوامل منعية وعوامل فعلية اما العوامل المنعية فهي امتناع الناس باختيارهم عن ولادة الاولاد واما العوامل الفعلية فهي العوامل التي تزيد الوفيات كالاوبئة والامراض والحروب والموبقات

وكأنه يريد ان يقول ان من العوامل ما يفعل باختيار الانسان وارادته ومنها ما يفعل بفعل طبيعة الوسط الاجتماعي بالرغم عن ارادة الانسان

﴿ العوامل المنعية ﴾ — اما العوامل المنعية فهي : اولاً الامتناع عن الزواج بتاتاً . وثانياً الابطاء بالزواج الى السن التي يقلب فيها العقم ونقل المواليد . وثالثاً العقم الصناعي اي استعمال الوسائل لمنع الحمل او للاجهاض قبل الوضع . وربما عُدَّت قرنا في طبيعة الام التي تلجأ الى هذه العوامل الاختيارية لمنع تكاثر النسل وتحاشي المزيد من الازدحام

وغني عن البيان ان الذي يعجز عن كسب رزقه وهو فرد لا يجرأ على ان يكفل اثنين او ثلاثة او اربعة . والزوجان اللذان يتمتعان بعد الزواج في شقاء لم يذوقاه قبله يبذلان وسعهما في منع ولادة الاولاد . فاذا شحت موارد الرزق على مزدحم السكان اضطر الى هذه الوسائل . وكثيراً ما تحاشى النساء الحمل لا لضيق ذات اليد بل لانهن يجنبن كل ما يشغلهن عن لهوهن وترفهن وهذه الوسائل فعالة جداً في منع تكاثر النسل . ومع كل ذلك فالناس يعجزون عن مقاومة الميل الطبيعي للتناسل ومنعه بتاتاً

﴿ حدة قوة التناسل ﴾ — وما دام هناك متسع من الرزق مهما كان قليلاً وما دام في طوق الناس احتمال الضيم ولم يحل بحسن احوال وما دام بين السكان موسرون او مقدمون لا يحتاجون من اعباء العائلة قليل الى ولادة الاولاد يبقى فاعلاً فعله . وكلما اشتد الازدحام واشتد الميل الى ولادة الاولاد مع ضيق الدائرة وضغط الشقاء جاء دور العوامل الفعلية لانقاص عدد السكان باكثار عدد الوفيات

﴿ العوامل الفعلية ﴾ — واهمها : اولاً الفقر . فحتى قلت نسبة الافراد من الرزق تحط درجة المعيشة فتسوء حالة الصحة وتكثر الامراض وبالتالي تقل طاقة الافراد على تحصيل الرزق فتزداد حالة المعيشة سوءاً . فالفقر يجلب السقم والسقم يجلب الفقر . فيقوم التقهقر الصحي مقام الجوائح الاقتصادي وعاقبة هذا التقهقر كثرة الوفيات طبعاً . وسقم الغذاء

ورقة الكساء عن مقاومة البرد واكتظاظ المساكن الحقيرة بالسكان والمعامل بالعمال حتى لتعذر النظافة والوقاية من الامراض تجيئ الاسباب لانتشارها الاوبئة فاذا حل فيهم وباء جرف منهم جانباً كبيراً

ثانياً البطر . فان الموسرين من السكان يتمادون في اللهو والبطالة والفجور وادمان السكر ونحوها من الموبقات التي تعرضهم للفقر من جهة وللامراض من جهة اخرى كالامراض الزهرية والسدرية وغيرها مما يتوارثه الخلف عن السلف وتجيئه اولاً الموت العاجل قبل دور الزواج او على اثره الامر الذي يقلل المواليد طبعاً . وثانياً ضعف السلالة من جراء توارث السقم . والنتيجة النهائية انقراض جانب من السلالة وانحطاط الجانب الآخر الى طبقة الفقراء هذا اذا لم تنقرض برمتها

ثالثاً . انتهاك القوة من الجهاد في الاعمال . فقد علمت مما سبق ان ازدحام الناس في دائرة العمل يفضي الى بذل كثير من القوى لاستخراج قليل من الرزق . والانتهاك كثيراً ما يورث الوفاة في مقتبل العمر قبل امكان التناسل فضلاً عن انهُ يورث ضعف قوة التناسل

﴿ الحروب ليست سبباً طبيعياً لصد الازدحام ﴾ — اما الحروب فلا اعدها من العوامل الطبيعية لتقليل السكان لانها ليست لازمة من لوازم الازدحام وانما هي نتيجة جنون اجتماعي ولهذا قد تقلل السكان في حين لا يلزم تقليلهم . ولذلك لا اعدها نتيجتها في تقليل السكان وان كان هذا التقليل من مقتضيات العمران لانهُ ليس من وظائفها

﴿ الحاصل ﴾ — ومحصل ما تقدم ان في طبيعة الاجتماع البشري عوامل طبيعية تقضي بمقاومة الميل الى التناسل وزيادة الوفيات قبل ان يمتلىء العمور والمجور بالسكان اي ان مجرد الازدحام ليس السبب الوحيد لصد تلك القوة كما يفهم من نظرية مالتوس . وهذا هو السر في أن البسيطة لم تمتلئ سكاناً حتى الآن وقد لا تمتلئ بعد قرون مع انهُ لو صحت نظرية مالتوس لاقتضى ان تكون البسيطة قد امتلأت مراراً قبل طوفان نوح ومراراً بعدهُ

﴿ السؤال الجوهري ﴾ — بقي سؤال آخر جوهري قد لا يقرب عن بال الكثيرين من القراء ولا يصح اغفالهُ في هذا المقال لئلا يبقى ناقصاً وهو : — هل ازدحام السكان حتى في الدائرة الواحدة هو العلة الوحيدة للفقر والشقاء والتعاسة لصد قوة الميل الى التناسل ؟ او ان هناك اسباباً اخرى تقضي بذلك ولو اربت قلة الفقر وامكن ان تسع دائرة الرزق من السكان اكثر مما تسع الآن ؟

نقولا حداد